الباب الأول

تنقل الثقافات عبر القرون

وتزاوجها وتوالدها

الفصل الأول

تطور الأدب والفن

فى كل عصر أناس ينظرون إلى الحاضر – لسبب أو لآخر – بمنظار أسود ، فيبدو لهم كالحاً كريهاً ، خلا من الفضائل ، وناء بالرذائل ، وغلب فيه الشر والقبح على الخير والجمال ؛ فالإنسانية لم تنعم إذن بعصرها الذهبى السعيد إلا فى الماضى البعيد ، حيث الحياة جنة وارفة الظلال ، والناس ملائكة أبرار . . . ولما كان النعيم لا يدوم ، والكمال إلى نقصان ، فقد تصوّحت الجنة . وتحول سكانها الأخيار شيئاً فشيئاً إلى زبانية أشرار .

وعالم الأدب لا يعدم مثل أولئك الذين يتلفتون إلى الوراء ، و يولعون بالماضى ، ولا يتذوقون من الأدب إلا تراث الأوائل ؛ فالعصر الذهبى للأدب أصبح فى ذمة التاريخ ، وهيهات أن يعود .

ولا ينفرد بلد دون بلد بولع جماعة من أبنائه بالآداب والفنون القديمة ، والمبالغة فى ذلك إلى حد ازدراء ما عداها ، فإذا كان بيننا أناس لا يتذوقون إلا الأدب العربى القديم ، بل يحسبونه منفرداً دون سائر الآداب بالأصالة والبلاغة وجمال الأسلوب والمعنى ، ففى أوربا أشباه لهم يزعمون أن الفنون والآداب بعامة بلغت أوج ازدهارها وتفتحها فى بلاد الإغريق ، ثم انطفأ لألاؤها بعد ذلك فلم تشرق لها بارقة فى أى صقع من الأصقاع ، خلال أى عصر من العصور .

وحسبنا أن نشير هنا إلى رأى هيجل فى هذا الصدد ، فهو يؤكد « أن الحضارة الحديثة غير ملائمة للفنون » ويقول « إن الفكرة فى محيط علم الجمال لا تتبع طريق الصعود كما تفعل فى محيط المعرفة ، بل العكس بالعكس ، فعندما تتقدم الفكرة وتبلغ حد الكمال يمحى الجمال » . ويقول أيضاً : « إن عهد الفن الإغريقى السعيد ، وكذلك العهد الذهبى للفن فى أواخر العصر الوسيط أدّيا رسالتهما ؛ أما ثقافة عصرنا الحاضر التأملية فتحصرنا فى محيط الإرادة ، وفى محيط الحكم على الأشياء ، وتشغل بالنا الشواهد العامة التى تعالج كل ما هو خاص . . . على أساسها

هذا هو السبب ، فى أن عصرنا لا يلائم الفن بعامة » . ثم يتدرج هيجل إلى قوله « إن الفكرة تجاوزت فى طريق تقدمها حدود مرحلة الفن . وعلى ذلك نتوقع أن تدول دولة الفن بغير رجعة ؛ إنها ستفنى فى دولة الفكر الذى يتقمص المجتمع البورچوازىّ » .

ويزعم هيجل أن هذه « الفكرة » التى يتحدث عنها . انطوى عليها الوجود منذ نشأته ، واستهدف بها « غاية معلومة » هى أن يحقق الحرية لنفسه كاملة مطلقة ، ويبلغ ذروة الكمال ؛ وسبيله إلى ذلك هو تطويره الدائم المطرد « للفكرة » عبر التاريخ . ويرى ذلك الفيلسوف أن الفكرة تمر بمراحل عدة فى مدارج تطورها أولاها « مرحلة الفن » ، والأخيرة مرحلة الفلسفة . . . « والفن هو تكشُّفُ الفكرة على مستوى الإلهام الحسى ، والفلسفة تكشف الفكرة على مستوى الإدراك الأعلى . وعلى ذلك لا يكون الفن إلا مرحلة ضرورية من مراحل تطور المعرفة ، ولكنها مرحلة أولية . . . والحق يحتفظ وحده بالبقاء ، ويتبدد الجمال حين يصل به النقصان والتناقض والتنافر إلى نهايته المحتومة ، فإذا الفن الذى عمر الوجود يصبح غير موجود » .

« روح الوجود » ، أو « فكرة الوجود »[1] تتكشف إذن فى الفن خلال المرحلة الأولى من تطورها حين تبلغ مستوى الإلهام الحسى ، ولا يتاح لها عندئذ أن تعبر عن نفسها إلا بالفن . ولكن تطورها الذى لا ينقطع ينتقل بها إلى مرحلة أعلى وهى مرحلة الإدراك العقلى ، أو الإدراك الأسمى ، فيتبدد الإلهام حينذاك ، وتعبر « الفكرة » عن نفسها بالفلسفة . بيد أن « الفكرة » لا تكف مع ذلك عن التطور حتى تحقق مثلها الأعلى ، وحريتها الكاملة[2] .

وكأنما شاءت الفكرة أن تختار بلاد الإغريق بالذات لتعبر هناك عن نفسها بالفن . . . وأولت سائر بلاد العالم ظهرها ! . . .

تعرض رأى هيجل ، فيما يختص بمراحل تطور الإنسانية ، لعاصفة من النقد . فالتطور يدب حقًّا فى كل جزء من أجزاء الوجود ، بل فى كل جزَىْءٍ من جزيئياته .

---

(١) يستعمل هيجل هذين التعبيرين أحدهما مكان الآخر قاصداً نفس المعنى .

(٢) قرر هيجل ذلك فى بادئ الأمر ، ولكنه حاد عنه فيما بعد ، ممالأة لذوى السلطان فى بلاده ، وقال إن الفكرة كفت عن التطور بعد أن حققت مثلها الأعلى فى ظل حكم فريدريك غليوم الثالث ! ...

كما قرر ذلك الفيلسوف . ولا ينقطع نشاطه عن الحركة . لا يكاد يكون اليوم خلاف على هذا . ولكن الخلاف ينشب عندما يعرض هيجل لأثر كل من الإدراك الحسى ، والإدراك العقلى ، فى حركة التطور ؛ فهو يفصل بين نمو الإدراكين فصلاً تعسفيًّا ، ويقرر أن الأول يضعف على مر الزمان بمقدار اشتداد الثانى ؛ ويزعم أن الفن الذى يبلغ ذروة الأصالة ينبع من الإلهام الحسى فى حين تنبع القوانين والأنظمة السياسية التى تتطور لتبلغ بدورها أوج الكمال ، وتحقق الحرية المطلقة « لفكرة الوجود » ، تنبع من الإدراك العقلى ، وأن الإنسانية حين تتجاوز مرحلة الإدراك الأول ، وتبلغ مرحلة الإدراك الثانى ، تنتقل إلى مرتبة أعلى فى طريق تطورها الصاعد .

يبدى هيجل إعجاباً حماسيًّا بأدب الإغريق وفنهم ، ويقرر أن عهدهما هو العهد الذهبى للفنون والآداب ؛ ثم يزعم ، على الرغم مما قرره ، أن انقضاء ذلك العهد ، وانتقال البشرية — بعد انقضائه دون رجعة — إلى مرحلة الفلسفة ، خطوة حاسمة إلى الأمام فى سبيل تحقيق مثلها الأعلى !

إن التسليم بانقضاء العهد الذهبى للفنون والآداب يدحض ما يحاول هيجل نفسه إثباته ، وهو صعود المجتمعات البشرية فى مراقى التطور دون انقطاع ، إذ كيف يتحقق لها الصعود وفنونها وآدابها فى تدهور وانحطاط ؟ !

من المسلم به أن الإدراك الحسى يستيقظ فى أى مجتمع بشرىّ قبل الإدراك العقلى ، ولكن القول بأن هذا الإدراك الأخير ينمو ويشتد على حساب التقدم الحسى ، وينقلب عليه ، ويبدد ما له من أثر ، ويضع عندئذ حدًّا لازدهار الفنون والآداب . . . هذا القول يناقض الواقع . فالإدراك الحسى يزداد يقظة وإرهافاً بنمو العقل ونضجه ، بل إن كلاً من الإدراكين يؤثر فى الآخر ويعينه على الاشتداد .

لم يكن الإدراك الحسى البدائى إلا منبعاً لفنون وآداب أسطورية تفسر الوجود تفسيراً وهميًّا ، وتصور الواقع تصويراً تهويليًّا ، ثم أصبح ، بعد تطوره الحضارىّ ، ينتج آداباً وفنوناً تصور الواقع على حقيقته ، وتحلل العواطف البشرية ، وتفسر الوجود فى دقة وأمانة فتزيد الناس معرفة به ، وقدرة على معالجة نواحى فساده .

إن الإنسانية لم تنحدر من علياء المعنويات إلى حضيض الإجداب الفنى ، مستسلمة لذلك المصير المذلّ . ولكنها لا تكف عن محاولة تغيير الأوضاع غير الملائمة لازدهار معنوياتها ، والأدب والفن يناضلان فى بطولة لتحقيق تقدمهما حتى فى الظروف القاسية المعيقة لذلك التقدم . إن الإنسانية لا تهبط من السماء إلى الأرض ، ولكنها تصعد باطراد من الأرض إلى السماء .

ولم تعدم أوربا أدباء منصفين أنكروا على هيجل إشادته بالآداب والفنون الإغريقية دون غيرها ، وزعمه أن ازدهارها كان الازدهار الأول والأخير للفن والأدب على مر القرون .

أنكر وليام والاس هذا الرأى . وبدأ إنكاره مستشهداً بالعبارة المأثورة : « ولكن هناك أبطالاً كثيرين ظهروا قبل أجا ممنون » . ثم قال : « لم تعد سجلات الثقافة تبدأ منذ نشأة الثقافة الإغريقية ، وقد ترددت ، حتى فى أيام هيجل ، أصوات كثيرة — مثل صوت الشاعر روكرت — معلنة أن المنبع الحقيقى للفكر الأوربى ، وفلسفته الأصيلة ، جدير بالبحث عنه فى الشرق السابق على غيره فى القدم ، مع دراسة حياة المجتمعات الأولية ، وانبثاق الأفكار من ثنايا المعتقدات والديانات الأولى وقد بدأت تلك الدراسة فعلاً فى عصر هيجل ، ومكنتنا ، إلى حد ما ، من تتبع ما استطاع خيال المجتمعات البدائية وإدراكها أن يتلمساه . بل حتى خيل إلى المحققين أنهم اكتشفوا المهد الذى ترعرعت فيه عناصر أولية من مدارك تلك المجتمعات فى ميادين الفن والدين والنشاط الفكرىّ ، وربما فى ميدان الإنسانية نفسها[1] »...

وثارت ثورة الشعراء على أثر سماعهم بنعى هيجل للفن ، وتأكيده أن دولته دالت إلى غير رجعة . وقال أحد شعراء فرنسا فى ذلك قولته المشهورة : « سيظل الشعر يزدهر ما دام هناك فجر يتبلج ، وزهر يتفتح ، وقلب يخفق ».

بيد أن الشاعر الألمانى هاينى كان أكثر وعياً إذ قال : « إن عهداً من الفن قد دالت دولته ، ولكن عهداً آخر ستتفتح آفاقه ، وسيكون طابعه أن يتبوأ الفن الثورىّ العرش » .

إن حركة التطور الحضارىّ ماضية فى طريق التقدم دون انقطاع . ولا نكران

---

(١) كتاب « مدخل لفلسفة هيجل » صفحة ٢١٦ من طبعة أوكسفور الثانية .

أن نكسة قد تصيبها يوماً ما ، فى مكان ما . لسبب من الأسباب — كما حدث لها مراراً عبر التاريخ ، ولكنها سرعان ما كانت تنتقل إلى مكان آخر . . . إلى تربة مهيأة لمزاولة نشاطها المتجدد ، ومواصلة تطورها العام غير المنقطع .

وكل حركة أدبية أو فنية لا تجد مجالاً صالحاً للنمو والسمو إلا فى ظل حركة اجتماعية حضارية ، بل إن كلتا الحركتين متممة للأخرى ، متفاعلة معها ، خاضعة لنفس ما تخضع له من نواميس التطور العام .

والتاريخ يحدثنا عن نهضات أدبية ازدهرت فى بلاد مختلفة عبر القرون ، ثم اضمحلت فاندثرت ، ولم يبق منها إلا بعض آثارها . ولكن كل واحدة من تلك النهضات قامت فى أول أمرها على أساس نهضة أجنبية سابقة عليها ، ثم أصبحت أساساً لنهضة أجنبية أخرى تالية لها . . . كل نهضة كانت تلقى بذورها ، قبل اضمحلالها ، أو بعد احتضارها ، فى بلد آخر ، أوفى بلاد أخرى ، فينبت من تلك البذور غرس جديد يستمد غذاءه أول الأمر من لباب تلك البذور ، ثم يستمده من التربة الجديدة التى نما فيها . ويظل يتطور حتى يتخذ طابعاً خاصًّا به ، ولا يبقى هذا الطابع على حال واحدة ، بل يتحول بدوره من مرحلة تطورية إلى مرحلة أرقى منها .

كل نهضة فى تاريخ الإنسانية كانت تستضىء بما خلفته النهضات السابقة عليها ، وتحاكيها فى بادئ الأمر ، حتى إذا اكتملت لها شخصيتها ، وتوفرت أصالتها ، أضافت الجديد المتطور إلى القديم الموروث ، وهذا يحدث دواليك فى مراحل التطوّر الإنسانىّ .

ويدلنا تاريخ الحضارات على أنها سلسلة من تيار حضارى عام متواصل التدفق ، دائم التنقل من بلد إلى بلد . وهو فى العصر الحاضر ، عصر الاتصال الوثيق بين مختلف الأمم ، ينتشر ويكاد يعم بلاد الأرض . ويزداد تقدمه يوماً بعد يوم بفضل استفادة الأمم بعضها من مبتدعات بعض .

وقد يبدو أننا نطيل الكلام هنا فى غير طائل . . . أيحتاج إثبات التقدم الحضارى المطرد إلى دليل ؟ ألم يعد لألاء الحضارة الحديثة يعشى العيون ؟ نعم ، إن إنكار هذا اللألاء قد لا يستحق الالتفات ، ولكن كم من حقيقة واضحة تعرضت لتمويه

المموهين ، واحتاجت إلى دفاع المدافعين !

والذين ينتقصون من قدر الحضارة الحديثة ، وينكرون إحراز الإنسانية لأى تقدم على مر الحقب ، ليسوا قلة بحال ، وخطرهم ليس بضئيل الشأن ، فالأدلة التى يحاولون بها إثبات وجهة نظرهم براقة خادعة تنطلى على جموع غير قليلة من الناس . ووجوب دحضها لا يرجع إلى وجوب إحقاق الحق فحسب . ولكن يرجع كذلك إلى أنها تبث اليأس فى نفوس العاملين على تطوير العالم ، وتثبط همم المشرئبين إلى حياة أفضل .

ونحن نكتفى هنا بمناقشة آراء أحد هؤلاء المنكرين لحركة التطور الحضارىّ ، وهذا المنكر هو « أزفلد شبينجلر » ، ففى مناقشته ما يغنى عن مناقشة من ينحون نحوه فى التفكير ، لأنهم يرددون جميعاً آراء متشابهة .

قال شبينجلر ، وهو يحسب أنه حقق فى مجال تفسير التاريخ فتحاً لا يقل أهمية عن الفتح الذى حققه كوبرنيك فى كشف علاقة الأرض بسائر الكون : « لم يبق إذن إلا القيام مرة ثانية بما قام به كوبرنيك من قبل حين حرر النظر باسم المكان اللامتناهى . إن الروح الغربية حققت هذا التحرر منذ زمن طويل فيما يتعلق بنظرها إلى الطبيعة يوم رجعت عن تفسير نظام الكون كما تصوره بطليموس إلى تفسير نظام الكون كما تتصوره اليوم ، فلم تعد نظرة الفلكى إلى الكون من الأرض ، أو من أحد الكواكب ، تمكنه من إدراك صورة الكون الحقيقية .

« التاريخ العام فى حاجة إلى تحرير المؤرخ من الوضع الذى تصادف ووجد نفسه فيه ، وهو (العصر الحديث) . فالقرن التاسع عشر يبدو لنا أغنى وأهم بكثير جداً من قرن كالقرن التاسع عشر قبل الميلاد . ولكن القمر يبدو لنا أيضاً أكبر من المشترى ومن زحل . . . »[1]

ومن رأى ذلك المفكر أن العلم بالشىء عن طريق العقل والمنطق يقتله . فالعقل والمنطق يجعلان من المعلوم موضوعاً جامداً قابلاً لقياسه وتقسيمه . أما الوجدان فعلى العكس من ذلك لأنه يضيف إلى الأشياء حين يدركها حياة إلى حياتها . . .

شتان إذن بين العالم الذى يعلم بالتجريب ، وبين المؤرخ الذى يقرأ الملامح

---

(١) كتاب « شبينجلر » للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٣٦ ، ٣٧ من الطبعة الثانية .

بالوجدان . ومن التناقض الواضح إذن أن تحاول دراسة التاريخ بمنهج العلم ؛ فللتاريخ منهج قريب كل القرب من منهج الشعر . « إن الطبيعة هى التى ينبغى أن تدرسها كعالم ، أما التاريخ فينبغى أن تدرسه كشاعر »[١] .

ويعود شپينجلر فيقول : « أليس مما يثير السخرية حقاً أن تبدو صورة الحضارة المصرية التى تكوّن كلاً عضوياً هائلا ، ضئيلة لا تكاد ترى بجانب صورة قرن كالقرن التاسع عشر فى أوربا ! . . . كلا يا سادة ، نحن فريسة يائسة إما لوهم خادع ، أو لزهو آثم . ولا شأن لنا هنا بالزهو ، ولكن علينا أن نكشف ذلك الوهم ونبدده تبديداً ، كما بدد كوپرنيك الوهم الذى خلفه بطليموس فى ميدان علم الفلك حين حسب أن الأرض مركز للكون تدور حوله الكواكب . . . وحينئذ لن يكون للحضارة الغربية ، أو الحضارة الإغريقية مكانة أميز من مكانة الحضارة الهندية أو البابلية أو المصرية أو العربية . بل لعل هذه الحضارات الأخيرة أسمى من حضارتنا الراهنة أو الحضارة الإغريقية نظراً إلى الجلال والعظمة اللذين ابتدعهما روحها »[٢] .

يستعين شپينجلر إذن بكشف علمى متعلق بنظام الكون يفسر به التاريخ ، وهو هو الذى حرص على وضع خط عريض فاصل بين المكان والزمان ، على أساس أن المكان ، بحسب تعبيره ، هو الطبيعة ، فى حين أن الزمان هو التاريخ ... والطبيعة لا يفسرها إلا العلم . والتاريخ لا يدركه إلا الوجدان ؟ ! . . والخطأ كل الخطأ فى محاولة تفسير التاريخ بالقوانين العلمية ؟ !

كيف طبق هذا الفيلسوف إذن كشف كوپرنيك العلمى فى تفسيره للتاريخ ؟ كيف طبق قانوناً خاصاً بالمكان على الزمان ؟ كيف نظر إلى مراحل التاريخ الزمنية المتطورة نظرته إلى معالم مادية ثابتة أو متحركة ؟ كيف خلط بين الصور الزمانية والصور المكانية ، وطبق نظرية القرب والبعد بالنسبة للمكان على القرب والبعد بالنسبة للزمان .

يستطيع شپينجلر أن يخلع على الباطل مسحة الحق بمنطقه السفسطائى ، وأن يخدع به المأخوذين بسحر بيانه ، ولكنه لا يستطيع بحال أن يحيل الحق إلى باطل .

---

(١) ص ٥٩ ، ٦٠ من الكتاب المذكور .

(٢) ص ٦٨ ، ٦٩ من الكتاب سالف الذكر .

أيصح فى الأذهان أن الحضارة الراهنة لم تحرز أى تقدم على الحضارات القديمة ؟ أو أنها لم تبلغ ما بلغته تلك الحضارات من جلال وعظمة ؟ أيصح فى الأذهان أن ما حصّلته البشرية على مر القرون من خبرات ضاعت بدداً دون أن يرثها السلف عن الخلف ويزداد بها معرفة وعلماً وكفاية ؟ . . أيعقل أحد أن العصر الحجرىّ مثلاً — تطبيقاً لنظرية البعد الزمنى — لا يبدو لنا متناهياً فى الضآلة ، من حيث التقدم الحضارىّ . إلا لشدة بعده عنا ؟ وأن العصر البدائىّ الهمجىّ أشد ضآلة لأنه أكثر بعداً عنا ؟ وأن تفاوت الحضارات فى القيمة والأهمية ليس إلا خدعة من خدع التفاوت الزمنىّ ؟

لقد وضح أن شبينجلر حاول أن يحمل الناس على إهمال الحاضر . والعيش بوجدانهم وخيالهم فى الماضى ، لخوفه مما يسفر عنه اطراد التقدم الحضارىّ — بعد أن أصبح مشاعاً ، وليس حكراً للطبقة المتميزة من تهديد لمصالحه ومصالح طبقته ... لقد أضله الغرور هو ومن على شاكلته من المفكرين الغربيين ففاته أن عجلة التطور لن تتوقف بإرادة فرد من الأفراد ، أو طبقة من الطبقات . أو أية قوة رجعية ، مهما بذل المعادون للتطور الحضارىّ من جهد فى هذا السبيل . . .

ظلم شبينجلر الحضارة الحديثة حين أنكر حركة التقدم البشرىّ ، وظلم الحضارات القديمة — من حيث تظاهر بإنصافها — حين عزل بعضها عن بعض ، وأنكر مساهمتها الإيجابية فى تطوير البشرية ، مغمضاً عينيه عن النصيب الذى اضطلعت به فى وضع أسس الحضارة الراهنة .

تغافل شبينجلر عن الصلات التى توشجت بين مختلف الحضارات . وعن تأثر كل منها بالأخرى ، وإفادة بعضها من بعض على نحو كان يدفع عجلة تطور البشرية دائماً إلى الأمام. إن كل حضارة كانت ، بحسب زعمه ، تنبثق تلقائيًّا دون سبب أو دافع — ولا شىء فى الوجود ينبثق تلقائيًّا دون سبب أو دافع — وكانت منفصلة كل الانفصال عما عداها من حضارات — ولا شىء فى الوجود منفصل عن كل ما عداه . لقد رأى : « أن الحضارة تولد فى اللحظة التى تستيقظ فيها روح كبيرة ، وتنفصل عن الحالة الأولية للطفولة الإنسانية الأبدية ! كما تنفصل الصورة عما ليس له صورة ، وكما ينبثق المحدود والفناء من اللامحدود والبقاء . وهى

تنمو فى تربة محددة تمام التحديد ، وتظل مرتبطة بها ارتباط النبتة بالأرض التى تنمو فيها . وتموت الحضارة حينما تكون الروح قد حققت جميع ما تملك من إمكانيات على هيئة شعوب ولغات ومذاهب دينية وفنون وعلوم وأنظمة سياسية . . . ومن ثم تعود إلى الحالة الروحية الطفولية الأولية ! . . . ».

هكذا لجأ شپينجلر إلى هذا التفسير الميتافيزيقى العجيب للتاريخ ، مغمضاً عينيه عن الواقع الظاهر ، مغفلا لمنطق الأشياء. وهل كان يستطيع أن يجد فى غير السبحات الميتافيزيقية دليلاً على صحة قوله التالى : « وثمة وهم يشوه صورة التاريخ وهو الذى يجعلنا نتصور أن التاريخ العام يسير على خط ممتد إلى الأمام يمثل إنسانية واحدة تتقدم باستمرار ؛ وفى تيار هذا الوهم انساق نفر من المفكرين والفلاسفة والمصلحين الذين رأوا فيه تحقيقاً وتأييداً ومعيناً على تصور ما يحلمون به من مثل عليا — ولا تنس أن المثل العليا جبن وخور — سموها تارة (سيطرة العقل) . وتارة أخرى (تقدم الإنسانية) ، وثالثة (سعادة العدد الأكبر من البشر) ، ورابعة (التطور الاقتصادى) ، ثم (التنوير) ، و (حرية الشعوب) ، و (السيطرة على الطبيعة ، و السلام الدائم) ... إلى آخر هذه الأوهام الصبيانية الزائفة ...[1] » .

يعبر « شپينجلر » عن الفكر الرأسمالى الغربى ، ويقع مثله فى متناقضات لا حل لها ، ولا مخرج منها ؛ فهو معجب بالحضارة الأوربية الحديثة ، بل فخور بها أشد الفخر ، ومتخذ منها مبرراً لسيادة الرجل الأبيض وتحكمه فى الشعوب ، واستغلاله خيرات العالم . . . ولكنه يحاول أن ينفى عن نفسه الزهو والغرور ، ويتظاهر بالتواضع ، فيقول هذه العبارة التى سبق ذكر : « أليس مما يثير السخرية حقاً أن تبدو صورة الحضارة المصرية التى تكون كلاً عضوياً هائلاً ، ضئيلة لا تكاد ترى بجانب صورة قرن كالقرن التاسع عشر فى أوربا ؟ . . . كلا يا سادة ، نحن فريسة إما لوهم خادع ، أو لزهو آثم . . . »

يكاد المريب يقول خذونى . . . وهل كان يخطر ببال شپينجلر أن ينفى عن نفسه ، وعن قومه تهمة الغرور إن لم يكن لها أساس ؟ . . .

ولكن أى داع دعاه إلى الاهتمام بنفى هذه التهمة عن نفسه وعن قومه ؟ . .

---

(١) ص ٦٩ و ص ٧٢ من الكتاب المذكور .

الداعى هو أن فلسفته كلها تدور حول محور الغرور ، فهو يبذل ما يستطيع من جهد ، ويتذرع بما يتوصل إليه من حيلة لينفى قيام أية صلة بين الحضارة الأوربية الحديثة والحضارات الأخرى القديمة . . . إن غيرته على الحضارة الرأسمالية الغربية هى التى تدفعه إلى إنكار أقل فضل لأية حضارة أخرى عليها . . .

ولا بأس من الإشادة بالحضارات القديمة الدائلة ، وشغل الأذهان بها ، فهى حضارات عفى عليها الزمن ؛ ولا بأس أيضاً من الزعم بأنها بلغت من حيث العظمة والجلال مستوى أرقى مما بلغته الحضارة الحديثة . فمثل هذا الزعم لا يمكن أن يؤخذ مأخذ الجد ؛ ولكن أهم ما فى الأمر أن حضارة الرجل الأبيض غير متصلة بغيرها من الحضارات ، أى غير مدينة بازدهارها لأية حضارة أجنبية . . . أو بعبارة أدق ، لأية حضارة غير أوربية . فالشعوب المختلفة لم تشترك على مر الدهور فى إبداع الحضارة البشرية وتطويرها إلى أن بلغت ما بلغته فى العصر الحديث من أوج ، ولكن الرجل الأبيض هو مبدعها دون شريك ، وهو وحده صاحب الحق فى جنى ثمارها . . .

والمفكر فى الغرب الأوربى مزهو بعلم بلاده . ولكنه يخشى أن تتلقفه الشعوب الأخرى ، وتستضىء بنوره ، وتفيق من سباتها فتتخلص من ربقة الرأسمالية ، وتضع حداً لاستغلالها ، ولهذا لا يفتأ يكرر قوله إن الشرق غنى بمعنوياته ، والغرب فقير بمادياته ، وإن العلم الحديث هو آفة كل خير ، ومبعث كل شر .

إن شبينجلر فخور أشد الفخر ، كسائر مواطنيه ، بالحضارة الغربية الحديثة ، ولكنه يخشى ، كما قلنا ، أن يؤدى اطراد تقدمها إلى تغيير الوضع الطبقى فى بلاده ، ولذلك نراه يسفه جميع المعتقدات التى تدعم التطور ، وتدفع بعجلته إلى الأمام ، ويكفى للتدليل على ذلك أن نعيد ذكر عباراته التالية : « . . . ولا تنس أن المثل العليا ضعف وخور . . . وقد سموها تارة سيطرة العقل ، وتارة أخرى تقدم الإنسانية ، ومرة ثالثة سعادة العدد الأكبر من البشر ، ورابعة التطور الاقتصادى ، ثم التنوير ، وحرية الشعوب ، والسيطرة على الطبيعة ، والسلام الدائم . . . إلى آخر هذه الأوهام الصبيانية الزائفة . . . » .

يدل التفسير العلمى للتاريخ — هذا التفسير المستمد من الواقع التاريخى —

على أن الصراع الطبقىّ هو المحرّك الأساسىّ للمجتمعات ، وهو الذى لعب الدور الرئيسى فى تقدم الحضارة ؛ فقد خطت البشرية خطوة إلى الأمام عندما وضع الإقطاع حدًّا لنظام الرق ، فأفسح فى المجال لتقدم الزراعة والصناعة والتجارة ، ومهد السبيل لنماء الطبقة البورچوازية التى ازدادت على مر الأيام غنى ونفوذاً ، فطاولت سادتها الإقطاعيين ، ونازعتهم على السلطان حتى تمكنت من انتزاع زمامه من أيديهم . ولا شك أن ثورتهم على الإقطاع كانت فى بادئ أمرها ثورة تقدمية ، وقد حققت حينذاك ازدهاراً علمياً وصناعياً كبيراً ، وجنت من وراء ذلك أرباحاً طائلة ، ولكن طمعها فى زيادة أرباحها جعلها تتوسع فى استخدام الأيدى العاملة توسعاً كبيراً ، وتستغلها أسوأ استغلال ، وخلقت بذلك القوة المناقضة لها ، تلك القوة التى ازدادت خبرة ووعياً على مر الأيام ، وفطنت إلى حقوقها المهدرة ، فتصدت لمستغليها تقاومهم ، وتسعى للتخلص من الفارق الطبقى ، وإحلال النظام الاشتراكىّ محل النظام الرأسمالىّ . وقد تحقق لها ذلك فى كثير من البلدان ، واستمرار التطور يبشرها بانتصار قريب فى كل ميدان .

هذا التفسير الواقعىّ للتاريخ ترفضه الرأسمالية بطبيعة الحال ، فهو نذير لها بالزوال ، فلا عجب إذا سفهه شپينجلر — عدو التقدم و باعث النازية — واستبدل به مذهبه الوهمىّ فى تفسير التاريخ ، وهو تفسيره بالوجدان أو بالتوسم ! . . .

إن مذهبه هذا مستمد من الاتجاه العام الذى تتبعه الفلسفة الغربية ، وهو الاتجاه الذاتىّ ، فالفرد فى ذاته هو محور الوجود ، ونشاطه المنفصل عن نشاط مجتمعه هو باعث الأحداث ، وبانى الحضارة ، ومسيّر التاريخ . والفرد قادر ، ببصيرته النفاذة ، على إدراك الحقائق ، وتفسير التاريخ ، دون الاسترشاد بالواقع ، والاهتداء بمنهج علمىّ ينير له الطريق . . .

يسخر شپينجلر بالمنهج العلمىّ فى تفسير التاريخ ، ويزعم أن المرء لا يستطيع تفسيره إلا بالتوسم . . . بإحساس الشاعر ، وهذا يؤدى ، كما هو واضح ، إلى تفسير كل فرد للتاريخ بحسب شعوره ، أى بحسب هواه ، وفى هذه الحالة تخفى عليه الحقيقة التى يحاول شپينجلر — ومن على شاكلته — طمسها . . .

وقد يسأل سائل وما صلة الآراء المتقدمة بموضوع هذا الكتاب ؟ . . . ما صلتها

برحلة الأدب العربيّ إلى أوربا ؟ ! . . .

تعددت منذ القرن الماضى بحوث دلّل كاتبوها على أن الحركة الثقافية التى نشأت فى الجنوب الفرنسىّ منذ القرن الثانى عشر ، ثم زحفت إلى الشمالين الإيطالىّ والفرنسىّ ، ووالت التقدم حتى بلغت ما بلغت من أوج فى عصر النهضة ، مستمدة من الشرق ، وأن الشعر العربىّ الذى أحدث أكبر الأثر فى الأدب الأوربىّ وقتذاك كان حلقة الاتصال الرئيسية بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب .

ومن الطبيعىّ أن تقابل هذه البحوث بالسخط من جانب مفكرى العالم الرأسمالىّ ، وليس التعصب وحده هو مصدر ذلك السخط ، ولكن تشترك معه المصلحة فيه ، فالدعوى الكبرى التى يدعيها الغرب ، وتروّجها أبواقه ، هى أنه المتصف وحده بالصفات الحضارية ، والقادر ، دون سواه ، على إبداع مقومات حضارة كالحضارة العصرية . . . ومن الواضح أن مثل هذه الدعوى العنصرية تضعف معنوية الشعوب المتخلفة بقدر ما تقوّى معنوية الشعوب المتقدمة ؛ فإذا قيل إن الشرق هو مهد الحضارات ، ومصدر الإشعاع الذى هدى أوربا إلى طريق الرقىّ ، نقض هذا القول دعوى الغرب المذكورة ، وبدد أثرها . . .

وهذا الكتاب يتوخى فى فصوله التالية دحض مزاعم المفكرين الغربيين من أمثال شپينجلر ، وإثبات اتصال الحضارات بعضها ببعض منذ القدم ، واقتباس بعضها مقومات بعض ، وتأثر كل منها بالأخرى وتأثيرها فيها ؛ وبيان الدور الذى لعبه الغزو فى هذا الصدد ، فالغزاة المتقدمون فى الميدان الحضارى ينقلون حضاراتهم إلى البلد المغزو إما طواعية وإما قسراً ؛ وهم إذا كانوا أدنى منه حضارة ، ومؤهلين للتدرج فى ميدان الرقىّ ، فلا مفر من أن يقتبسوا ما يلائمهم من أسباب حضارته .

ومتى ثبت ذلك ؛ وثبت أيضاً أن العرب كانوا متقدمين على غيرهم فى الميدان الثقافىّ والحضارىّ يوم غزوا أوربا ، وأن الأوربيين كانوا مهيئين للأخذ بأسباب الحضارة التى وفدت إليهم ، تبدد كل شك فى إفادتهم من حضارة العرب وثقافة العرب .

بيد أن الفصول التالية لن تكتفى بإثبات الوقائع المذكورة ، والاكتفاء بها دليلاً على تأثر نهضة أوربا الأدبية بالثقافة العربية ، لا سيما الشعر العربىّ . ولكنها ستمتحن

أدب أوربا قبل مجيء العرب إليها ، وتتبين خصائصه ، ثم تنظر فى التحول الذى طرأ عليه بعد مجيئهم ، وتقيم الأدلة على أنه اكتسب ، بعد ذلك التحول ، نفس خصائص الأدب العربىّ . . . وبذلك يتضح زيف وجهة نظر العنصريين من مفكرى أوربا ، ولا يبقى مجال لأدنى شك فى فضل العرب على الحضارة الأوربية بعامة ، والأدب الأوربىّ بخاصة .

سيبدو واضحاً أن الأدب الأوربىّ لم يزدهر فى العصر الوسيط لأن « روحاً كبيراً » استيقظ من تلقاء نفسه فجأة فى أوربا ، طبقاً لنظرية شپينجلر . . . أو لأن إدراك الأوربيين الحسى كان غالباً وقتذاك على إدراكهم العقلىّ ، طبقاً لنظرية هيجل ؛ ولكنه صحا من غفوته بعد اتصاله بأدب أرقى منه مستوى ، وسار فى طريق التقدم طبقاً لنظرية التطور والارتقاء .

وليس الهدف من قولنا المتقدم أن نفخر فخراً باطلاً بأمجاد جدودنا ومآثرهم ؛ أو أن ننتقص من قدر النهضة الأدبية الأوربية ، فالفتى من يقول هأنذا ، لا من يقول كان أبى . . . وإنما الهدف أن نوضح الحقيقة التى طالما حاول المغرضون إخفاءها ، وهى أن شعوباً عديدة من مختلف أنحاء الأرض ساهمت فى تشييد صرح الحضارة الأوربية الحديثة ، وأن جدودنا العرب ساهموا بأكبر نصيب فى تلك السبيل ؛ وعلى ذلك يتجنى الغرب على أصحاب الفضل حين يدعى أنه صاحب اليد الأولى والأخيرة فى بناء صرح الحضارة الحديثة ، وأن من حقه ، نتيجة لذلك ، أن يحتكر الإفادة منها ، وأن ينصب نفسه قيِّماً على سائر الأمم ، فيستعمر بلادها ، ويزعم كذلك أنه لا يقصد من وراء ذلك إلا أن يلقنها حضارته ، ويرفع مستواها المادىّ والفكرىّ . . .

وعلى ذلك أيضاً لا تكون هناك غضاضة على أية أمة فى الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية ، أو بما يوافقها منها ، ما دامت هذه الحضارة ، فى حقيقة أمرها ، ثمرة جهود الإنسانية جمعاء ، وتراثاً لأممها قاطبة .